عالم البحار

وهو الذي سَخَّر البحر

تأمل معي عجائب البحر وما فيه من المخلوقات على اختلاف أجناسها وأشكالها وألوانها تجد عجبًا وقدرة قادر.

في البحر حيوانات كالجبال لا يقوم لها شيء وفيها ما يُرى ظهورها فيُظن من عِظَمِها أنها جزيرة فينزل الركاب ويُشعلون نارهم فَتُحِس النار إذا أوقدت فترتحل فيُعلم أنه حيوان!!

وكلما ازداد الإنسان فيه عمقًا صار كل شيء مظلمًا، ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ وقد زَوَّد الله الأحياء البحرية في أعماق البحار اللُجِّية بنورٍ تُولده لنفسها، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

فالبحر مخلوق عجيب... وهو من جنود الملك جَلَّ جَلَالُه، يستأذن ربه كل يوم في إهلاك العصاة... وقد رأينا فعله بأمر الله في شواطئ العهر والدعارة... فنعوذ بالله من غضب الله وأليمِ عقابِه.

حكى ابن عطية وغيره قولًا في تفسير قوله: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: المحبوس، قالوا ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من حديد تمسكه... فلولا أن الله يُمسك البحر لفاض وأغرق الدنيا وغمر اليابسة... كما أن الله يمسك السماء أن تقع على الأرض بلا علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها.

وهذه البحار تكون نارًا يوم القيامة... سلم يا رب سلم.

وفي قاع البحر الآن كُتل من النيران الهائلة وتصل حرارة اللافا - الصُهارة - إلى (١٠٠٠)° فلا الماء يستطيع أن يطفئ جذوتها ولا الحرارة على شدتها تستطيع أن تُبَخِر الماء لكثرته.

ولولا تلك الصدوع والشقوق في قشرة الأرض لانفجرت لما يحدثُ بباطنها.

والإنسان إن غاص على عمق ثلاثين مترًا فإن غاز النيتروجين يذوب في دمائه بفعل الضغط العالي، وبالتالي يؤثر على عمل مخه فيفقد الإنسان السيطرة على تحركاته تمامًا، فإن نزل لعمق أكثر انهرس جسمه بفعل الضغط، وإن ارتفع فجأة يَخِفُ الضغط بشدة فيخرج النيتروجين فائرًا كما تخرج الغازات الذائبة في قارورة المياه الغازية عند رَجِّهَا!!

شيء يُحيّر العقول!!

دعني أصحبك الآن إلى أعمق مكان في محيطات العالم.. إنه خليج موريانا.. يصل عمقه إلى ١١ كم، لم يستطيع الإنسان الوصول لهذا العمق إلا بعد صناعة الغواصة تريستا، وهي عبارة عن كُرة سُمك جدارها ٩ سم من الصلب كي تتحمل الضغط الهائل.. وبعد ٤ ساعات من النزول المستمر.

هل تصدق أنهم وجدوا أسماكًا تعيش في هذه الأغوار السحيقة التي يكفي ضغط الماء فيها لسحق الغواصات الحديدية؟

ألم تسأل نفسك كيف تحيا هذه السمكة هناك!؟.

مَنْ كان يتصور وجود حياة حول فوهات الأعماق التي تقذف ماءًا درجة حرارته تتراوح بين ٣٥٠°: ٤٠٠°؟!

جعل الله القدرة لهذه الأحياء البحرية على التَّكَيف مع الحرارة العالية، والضغط الشديد، والظلمة القاسية، والغازات السامة، والمياه الحمضية.

سبحان الملك...

الذي وهب الاخطبوط القدرة على التَّخَفِّي والتَّلون.. فلو أنك وضعته على رُقعة الشطرنج لتلون كل جزء من جسمه بلون المربع الذي علاه!!.

بعض الأسماك تتولد عنها صعقة كهربية عالية عند لمسها تتراوح بين ٣٠٠: ٨٠٠ فولت.. فهي كفيلة بقتل إنسان، وكان القدماء يعالجون بتلك الصدمات أمراضًا معينة، لكن الطب الحديث اسْتَلهَمَ ذلك وطَوَّرَهُ بجهاز مُوَّلِد التيار للصدمات الكهربية.

فتلك وسيلتها الدفاعية.. وبالتجربة أصادت تلك السمكة ست مصابيح كهربية لعدة ثوان.. طاقة الواحد منها واحد وط.

بعض الأسماك يُكتب برطوبتها فلا يظهر على الكَاغِد - لوح الكتابة - شيء، فإذا كان الليل ظهرت الكتابة واضحة.

والأسماك لا تَذرِف الدموع إذ ليس لها غُدد دمعية.

وأمهر ربان في العالم بكل خبراته ودراساته ورحلاته لا يمكنه الإبحار من ساحل فرنسا إلى مَصَبِّ الأمازون مباشرة بغير بوصلة كما تفعل أسراب السلمون.

الحوت الأزرق... يصل وزنه إلى ١٥٠ طن تأمل... لسانه فقط يَزِن فيلًا، وهو يتناول في وجبة واحدة ٤ أطنان... أما رضعة صغيره تُقَدَّر بـ٣٠٠ كم... ليتنا نوقن باسم الله الرزاق.

ومن حكمة الله أن جعل البحار والمحيطات مالحة إذ لو كانت عذبة لفسدت وأنتنت... لكنها إذا ما تبخر ماؤها نزل مطر عذب.

ومن مظاهر القدرة الإلهية أنك تأكل من البحر المالح لحمًا طريًا وإلا فكيف لا يتملح السمك الطري وهو مغمور بالماء المالح الأجاج؟ أتدري أن متوسط ملوحة البحار (٢٧ جرام)[1] ملح لكل لتر من الماء؟ بمعنى أنه لو استخرج ملح البحار جميعًا لغطى اليابسة وعلا القارات بارتفاع ٥٣ مترًا.

وبالجملة فالبحر للماء خَازِن، ولحرارة الشمس لاقِط، وللأسماك مُستَقَر، وللأرض مُبرد، وللسفن طريق، وللآلئ حَاوٍ، وللسحاب سبب.

فسبحان الذي خلق البحار، وأحصى ما تحويه من كائنات، وقد تكفل بأرزاقها سبحانه جَلَّ في عُلاه، وهو الذي دَوَّرَ اللؤلؤ في أصدافه تحت الماء.

فكم في البحر من قطرة يحصيها الله! وكم فيه من سمكة تستغفر للعلماء!!

---

(1) وفي بعض المراجع أنها (٣٥جم/ لتر) فالله أعلم بالصواب.